فلسفة « نيوتن » التجريبية

وبينما راج المذهب العقلى فى المنرقة بين الفلاسفة الفرنسيين نجد الفلاسفة الإنجليز يحملون لواء المذهب التجريبى . مهد لذلك دراسات بيكون فى المنطق الجديد ، وأيد ذلك الاكتشافات العلمية التى توصل إليها الباحثون الذين عوّلوا فى دراساتهم على التجربة. وقد كان «لنيوتن» *Newton* العالم الإنجليزى أثر كبير فى دعم أسس المذهب التجريبى . وتأثر به الفلاسفة التجريبيون من الانجليز وعلى رأسهم لوك وهيوم .

ومنهج « نيوتن» (١) العلمى منهج راسخ يستهدف البحث عن العلل الحقيقية للظواهر ، وينحّى جانباً طرائق الميتافيزيقيين ، فيمتنع عن كل فرض يفلت من زمام التجربة ، وينبذ ما أخذ به العقليون من أفكار واضحة . وكان من ثمرات هذا المنهج قانون الجاذبية وقانون القصور الذاتى.

إن تصور علوم الطبيعة بوجه عام يرتبط عند الفلاسفة العقليين ارتباطاً وثيقاً بالميتافيزيقا ، فأعم قوانين الظواهر عند ديكارت ينبغى أن تستنبط استنباطاً مباشراً من كمالات الله . ويلتئم المنهج بالطبع مع تصور العلوم . فعند ديكارت تطابق فكرة مبادىء كلية تحكم مجموعة العلوم أعنى فكرة علم كلى ، فكرة منهج كلى أيضاً قياسى فى معدنه تلعب

---

(١) ارجع الى تفصيل منهج نيوتن فى الباب الأول — الفصل الثاني من كتاب « فلسفة هيوم » للدكتور محمد فتحى الشنيطى — الناشر مكتبة القاهرة الحديثة — ١٩٥٦

التجربة فيه دوراً ملحوظاً ولكنه دور مؤقت على أية حال . والأمر عند « نيوتن » يختلف عن هذا ، فهو يدرس الظواهر فى خصائصها من فلكية وكيميائية وفيزيقية . . الخ ، كلاً على حدة ، وفى كل منها يبدأ بملاحظة الوقائع وينتهى إلى تحديد قوانينها ، ونحّى «نيوتن» كذلك فكرة منهج كلى مستمد من الرياضيات استمداداً مباشراً . فهو يبحث فى كل ضرب من ضروب الظواهر عن عمليات المنهج التى تعين على إبراز العلاقات بين الوقائع وتؤدى إن أمكن إلى تعبير كمى عنها .

لكلمة مبدأ *Principle* فى فلسفة «نيوتن» منطوق خاص، فهو يقصد بها حسبما يذكر فى كتابه البصريات (*Optics*) خاصّةً تلوح لنا عامة ، نستخلصها من تجربتنا الحسية ، مثل ذلك مبد القصور الذاتى *Inertia* ومبدأ الجاذبية *Gravity* ومبدأ إلتحام الأجسام *Cohesion of Bodies* .

والوصول إلى المبادىء أو القوانين يقتضينا أن نقطع مرحلتين . فى المرحلة الأولى نتخذ المنهج التحليلى *Analytical Method* وفى المرحلة الثانية المنهج التركيبى *Synthetical Method* . فى المنهج التحليلى نقوم بتجاربنا وملاحظاتنا ونستخلص منها نتائج عامة بالاستقراء ، فبالتحليل نصل إذن إلى معرفة الأجزاء من تحليل مركباتها ، وإلى القوة المولدة للحركة ، وإلى معرفة العلل عن طريق معلولاتها . أما فى المنهج التركيبى فنفترض أن هذه النتائج التى وصلنا إليها نتائج عامة وهى بمثابة مبادىء أو قوانين تفسر بها الظواهر .

وكانت تعاليم «نيوتن» الخاصة بالمناهج الملائمة للبحث العلمى من أهم الأسس التى شاد عليها هيوم *Hume* فلسفته ، وقـــد تأثر لوك

John Locke من قبل بها وكان طريقنا هاما سرت منه إلى هيوم .

لوك John Locke (١٦٣٢ — ١٧٠٤)

ولوك كما ذكرنا(١) هو الذى وضع النظرية التجريبية فى المعرفه فى صورة البحث المستكمل . وقد أنكر الأفكار والمبادىء الفطرية فى المعرفه والأخلاق معاً . ومعنى هذا أنه لا يسلم بكفاية العقل بل يرى أن العقل عاجز تماما عن تزويدنا بمعرفه أولية فطرية . فكان فى موقفه هذا على نقيض مايذهب إليه أنصار المذهب العقلى .

وضع لوك كتابه « مقال فى العقل البشرى » لا بغية البحث فى ماهية العقل بل لدراسة الخطوات المختلفة التى يقطعها العقل فى اكتسابه للمعرفة . وينقد لوك القائلين بالأفكار الفطرية الغريزية نقدا عنيفا . وأصحاب المذهب الفطرى يذهبون كما نعلم إلى أن هنالك أفكاراً قائمة فى العقل قبل الملاحظه والتجربة ونسلم بها جميعا لبداهتها . مثل ذلك مبدأ عدم التناقض والذاتية أى أن الشىء الواحد لا يمكن أن يشغل مكانين مختلفين فى آن واحد ، وفكرة الله .

ويرى لوك أن هذه الأفكار ليست فطرية كما يتوهم هؤلاء ، ذلك لأن كثيراً من الناس لا يسلمون بها تسليما أولياً ، وكثير من الناس قد لا يعتقدون فيها اطلاقاً ، فنجد الطفل أو المخبول أو البدائى يتبع فى تفكيره أسلوباً متنافياً مع المنطق ويعتقد أن الشىء يمكن أن يوجد فى مكانين مختلفين فى آن واحد . وفكرة الله ليست كذلك فطرية بدليل أن مدلولها يختلف باختلاف الشعوب والبيئة والثقافة فهى من ثم مكتسبة — فى رأى لوك — من التجربة والبيئة .

---

(١) راجع ص ٢٣ من هذا الكتاب .

ان عقلنا ساعة أن نولد أشبه بصفحة بيضاء ومعارفنا مكتسبة من التجربة . وهنالك نوعان من التجربة تجربة خارجية هى التجربة الحسية وتجربة داخلية أو باطنية هى تأمل العقل فى الأفكار التى ترد إليه عن طريق الحواس . والأفكار التى تأتى إلى العقل عن طريق الحواس هى الأفكار البسيطة *Simple Ideas* من قبيل اللون ، والشكل ، والصلابة ، والإمتداد ، والحجم والعدد والحركة وما على غرارها . ويتناول العقل الأفكار البسيطة وينصب عليها نشاطه فيربط بينها فيؤلف أفكاراً مركبة *Complex Ideas* ولذ ك لا يقابلها محسوس خارجى كما هو الشأن فى الأفكار البسيطة . والأفكار المركبة تشمل .

١ — الأعراض وهى تدل على صفات لا تتقوم بنفسها بل توجد فى غيرها . كالجمال الذى نصف به الزهرة أو الحديقة .

٢ — الجواهر وهى أفكار دالة على أشياء توجد بذاتها وتوصف بالأعراض كالزهرة والحديقة والإنسان .

٣ — العلاقات وهى أفكار تعبر عن روابط بين أشياء كفكرة الأبوة والأكبر ، والأصغر .

والعقل لا يبدى نشاطاً فى إكتساب الأفكار البسيطة التى تأتى من الاحساس بل لا يعدو دوره استقبالها فحسب ، فموقفه بصددها إذن موقف سلبى بينما يتبدى نشاطه واضحاً فى التأليف بين هذه الأفكار فى أفكار مركبة فيكون موقفه حينئذ موقفاً إيجابياً .

ويرى لوك أن الأفكار المركبة التى هى ثمرة نشاط العقل جعلت الفلاسفة العقليين يتوهمون أنها فطرية نابعة من العقل ولا دخل للتجربة

فيها ، ويحلل لوك بعض هذه الأفكار المركبة ليثبت أنها فى نهاية الأمر مستمدة من الأفكار البسيطة الآتية بدورها من التجربة الحسية .

ففكرة اللانهائى ، كان ديكارت يعدها فكرة فطرية واستنتج عن طريقها وجود الله . وذلك على النحو التالى : لما كنت أشك فمعنى هذا أننى ناقص وليس من سبيل لى إلى إدراك نقصى إلا إذا كانت فى ذهنى فكرة الكمال اللامتناهى ، فمن الذى وضع هذه الفكرة فى ذهنى ؟ لابد وأن يكون موجوداً كاملا لا متناهياً أعنى الله . ولكن لوك يرى أن هذه الفكرة وليدة نشاط العقل بتأليفه بين الأفكار البسيطة المستمدة من التجربة الحسية . ذلك أننا لما كان وجودنا محدوداً بالزمان والمكان فإننا نتصور مكاناً لاحد له وزماناً لاحد له عن طريق المقارنة والتخيل ومن هنا تأتى فكرة اللامتناهى فهى من ثم من تأليف العقل،وهى بذلك تالية لفكرةالمتناهى الآتية من التجربة والتى لولاها لما وصلنا اليها . فالتجربة إذن هى معين المعرفة .

أما فكرة الجوهر ، فهى من ابتكار العقل ، وليس هنالك وجود حقيقى لجوهر ما ، وإنما يبتكر العقل هذا الوجود حتى يحل فيه الصفات العرضية المختلفة .

وفكرةالعلية ، وليدة التجربة تنشأعن إدراكنا للتغير فى الظواهر والأشياء التى تقع تحت حواسنا فيرى العقل أنه لابد أن يكون هذا التغير نتيجةسبب هو علته . ففكرة العلية إذن فكرة مركبة ألفها العقل من أفكار بسيطة ولا وجود لها فى خارج الذهن .

ويميز لوك بين نمطين من المعرفة ، معرفة حسية نصل إليها عن طريق الحواس ، ومعرفة عقلية عن طريق البرهنة والاستدلال المنطقي ، والمعرفة العقلية تستند بالطبع إلى المعرفة الحسية .

وفي وسعنا بعد هذا العرض أن نلخص موقف لوك من مبحث المعرفة في النقط الآتية :

١ — الموضوعات الخارجية موجودة وجوداً مستقلا عن معرفتنا بها ، ويمكن أن تستمر في الوجود حتى ولو لم يكن هنالك أفراد يدركونها . والأفكار من جهة أخرى ، تعتمد في وجودها على العقل بالرغم من أن قيامها في العقل مستمد أصلاً من الأشياء الخارجية .

٢ — الموضوعات الخارجية أو الأشياء الواقعية لها صفات لا تستمد وجودها أو طبيعتها من العقل . ولكن الأفكار التي تمثل الأشياء والصفات في العقل تعتمد على العقل . ولما كان العقل يعتمد اعتماداً تاماً في أفكاره على الصفات الأولى *Primary qualities* القائمة في الأشياء ، فمثل هذه الصفات تعتبر إذن حقيقية . ولكن لما لم يكن في الأشياء صفات ثانوية *Secondary qualities* مطابقة لأفكارنا المركبة ، فهذه الصفات الثانوية يمكن اعتبارها معتمدة على العقل أعني اعتبارها صفات ذاتية وليدة نشاط العقل .

٣ — الأشياء الخارجية وصفاتها لا يؤثر فيها أننا نعرفها ، ولكن الأفكار تخضع لتأثير العقل والأفكار البسيطة يستقبلها العقل كما هي

فموقفه منها موقف سلبي ، والأفكار المركبة تتولد فى العقل من الأفكار البسيطة ومن ثم فالعقل هو الذى يصطنعها ويشكلها .

٤ — الأشياء الخارجية ليست توجد على نحو ما تبدو فى الأفكار المركبة بل كما تظهر فى الأفكار البسيطة . والأفكار المركبة لا تشبه الأشياء كذلك مادام بناء العقل للأفكار المركبة قد يختلف اختلافاً كبيراً عن البناء الواقعى للأشياء فكل معرفة تمثل الأفكار المركبة هى إذن عرضة للخطأ وليست معرفة وثيقة .

والآن هل نجح لوك فى عرض نظرية تجريبية للمعرفة تنكر كل أساس فطرى فى العقل ؟ إن تمييز لوك بين صفات أولى وصفات ثانوية بين أفكار بسيطة وأفكار مركبة ، يفضى إلى التسليم بأن هنالك صفات وأفكاراً ذاتية . ومن ثم يتيح هذا لخصوم المذهب التجريبي البرهنة على أن جميع الصفات ذاتية وليس بعضها (الصفات الأولى) قائماً فى الأشياء كما يزعم لوك . وبالرغم من أن لوك ينكر الأفكار الفطرية ، فإنه لم يوفق فى زعزعة عادات التفكير العقلى . والتمييز الذى نراه عنده بين الأفكار من ناحية والأشياء الخارجية من ناحية أخرى يفضى حتما إلى ثنائية الفكر والمادة ، الذات والموضوع ، ويدعونا إلى التساؤل : ما هو أساس التسليم بصدق الأفكار التى ترد إلينا من التجربة ؟ هذا ما ستتجه إليه عناية «هيوم» فيفتح فى دراساته للمعرفة باب الدراسة التجريبية النقدية التى ستفضى من ثم إلى قيام المذهب النقدى على يد « كانت » ، وهو المذهب الذى يؤلف بين موقف العقليين وموقف التجريبيين كما سنرى فيما بعد .

التجريبية النقدية عند هيوم (١)

David Hume (١٧١١ — ١٧٧٦)

ينطلق هيوم فى دراسته للمعرفة إلى ميدان لم يطرقه لوك. فهو لا يقتصر على بيان طبيعة الأفكار القائمة فى العقل كما قنع بذلك لوك وإنما يعنيه من دراسة الأفكار أن يتبين الانطباعات الحسية والفكرية التى صدرت هذه الأفكار عنها . وهو ينقد الأفكار ليتحقق من مشروعيتها وليتأكد من موضوعيتها .

ويستهدف هيوم من دراساته بناء علم للطبيعة البشرية يجرى على نفس المنهج العلمى الذى اتبعته العلوم الطبيعية فوصلت إلى نتائج عظيمة وقطعت أشواطاً كبيرة فى سبيل التقدم . وهو يرى أن السبب فى تخلف الدراسات البشرية يرجع إلى تخبطها وعدم اعتمادها على منهج واضح سليم . ويتخذ هيوم منهج نيوتن مثلا يُحتذى فى هذا المجال .

بهذه الروح العلمية درس هيوم العقل البشرى ووضع نظرية المعرفة على أساس جديد .

الانطباعات والأفكار :

إن إدراكاتنا جميعاً *Perceptions* تندرج تحت طائفتين : ١ — الانطباعات *Impressions* والأفكار *Ideas* . والانطباعات تتميز عن

---

(١) راجع تفصيل ذلك فى الباب الثانى والثالث من كتابنا عن « فلسفة هيوم » مكتبة القاهرة الحديثة — ١٩٥٦

الأفكار بأنها أملى بالقوة والحيوية ، وهذه الانطباعات تشمل أحاسيسنا وعواطفنا وانفعالاتنا . ويرى هيوم أن الأفكار هى صور واهنة لهذه الانطباعات . ومع أن هنالك حالات نفسية تضيق فيها الشقة بين أفكارنا وانطباعاتنا فتبدو الأفكار حافلة بالقوة مفعمة بالحيوية ، كما فى حالات النوم والحمى والجنون ، أو فى المشاعر الحادة والانفعالات العاصفة ، ومع أن هنالك حالات نفسية أخرى تبدو فيها الانطباعات ضعيفة واهنة أقرب إلى الأفكار ، إلا أن هيوم يرى توخياً للدقة فى دراسة عناصر التفكير البشرى أنه ينبغى لنا أن نميز بين طائفتين من الإدراكات ، انطباعات وأفكار على نحو ما بينا .

ويرى هيوم أن الانطباعات تسبق الأفكار ، أى أن كل فكرة لابد وأن تكون فى نهاية الأمر مطابقة لانطباع صدرت عنه .

ويميز هيوم فى انطباعات بين نوعين : ١ ـ انطباعات الاحساس *Impressions of sensation* و٢ ـ انطباعات التفكير *Impressions of reflection* ، وهذه الأخيرة أعنى انطباعات التفكير تنشأ عن الأفكار . ويميز بين نوعين كذلك من الافكار : ١ ـ أفكار الذاكرة *Ideas of the Memory* ٢ـ أفكار الخيال *Ideas of the Imagination* والأولى تعتبر صورة مطابقة لما نشأت عنه من انطباعات، بينما الخيال يتلاعب بأوضاع أفكاره بحيث لا تغدو نسخاً مطابقة للانطباعات التى صدرت عنها .

التداعى *Association* :

ولو كان الخيال متحرراً من كل قيد لكان من العسير علينا أن نجد

تفسيراً لعملياته . والواقع أن الخيال يتناول الأفكار البسيطة فيفصل ويؤلف فيما بينها مكونا الصور والأوضاع التي تروق له. وهذه الأفكار البسيطة ترتبط فيما بينها بعلاقات خاصة والفضل فى هذا يرجع فى نظر هيوم إلى قانون التداعى بين الأفكار والانطباعات . ولهذا القانون من الأهمية فى الطبيعة البشرية ما لقانون الجاذبية فى العلم الطبيعى . وكما أن « نيوتن » يستنبط قانون الجاذبية من مشاهدة الظواهر الطبيعية فكذلك يستنبط هيوم قانون التداعى من ملاحظة الظواهر النفسية .

والعلاقات الرئيسية التى ينشأ عنها التداعى وينتقل بواسطتها الذهن من فكرة إلى أخرى ثلاث :وهى التشابه *Resemblance* ،والتجاور فى الزمان والمكان *Contiguity in time and place* ، والعلة والمعلول *Cause and Effect* . وعلاقة العلية *Causal Relation* هى أهم هذه العلاقات جميعاً .

نقد العلية :

ويدرس هيوم العلاقة العلية دراسة نقدية مسهبة . ونقد العلية يعتبر بحق المحور الذى تدور حوله فلسفته وتقوم على أساسه نظريته فى المعرفة . وإن فحص العلاقة العلية لهو فحص للأساس الذى تقوم عليه معرفتنا . لنتساءل مع هيوم : ماهى الدعامة التى تقوم عليها استدلالاتنا من التجربة ؟

يفرق هيوم بعناية بين نوعين من الدراسة ١ ـ البحث فى العلاقات الضرورية بين الأفكار ٢ ـ البحث فى أمور الواقع *Matters of Fact*

والدراسة فى النوع الأول تؤدى إلى نتائج ذات يقين قاطع كما هو الشأن فى علوم الهندسة والجبر والحساب. فالعدد (٥) مكرراً ست مرات يعدل العدد (٣٠)؛ هذه القضية تعبر عن علاقة ضرورية بين عددين. والقضايا من هذا القبيل نصل إليها بعمل فكرى محض دون أن نستند فى هذا إلى الوجود الخارجى، ومن هنا كانت الحقائق التى برهن عليها «أقليدس» فى الهندسة محتفظة بيقينها حتى وإن لم يكن فى الطبيعة مثلثات أو دوائر. وأما الدراسة الخاصة بالنوع الثانى أعنى أمور الواقع فهى لا تؤدى إلى مثل ما أدت إليه الدراسة الأولى من نتائج لها يقين قاطع، فليس ثمة تناقض فى التسليم عقلا بهاتين القضيتين «الشمس ستشرق غداً»، «الشمس لن تشرق غداً»، إذ ليس فى الوسع أن نبرهن على بطلان هذه القضية الأخيرة بطلاناً قاطعاً على نحو ما نبرهن على بطلان إحدى القضايا المناقضة لحقيقة من الحقائق الرياضية.

ولكنا مع ذلك نلاحظ أننا نسلم فى الواقع بصحة القضية: «الشمس ستشرق غداً» بينما نأبى التسليم بالقضية الأخرى المناقضة لها. فجدير بنا إذن أن نبحث عن السبب فى أننا نؤيد مثل هذه القضايا المتأدية لنا من الواقع ونتخطى فى تأييدها والتسليم بوقوعها مجال الحس والذاكرة.

ولو أنعمنا النظر فى جميع الاستدلالات الخاصة بأمور الواقع لتبينا أنها مبنية على العلاقة العلية. وهذه العلاقة هى العلاقة الوحيدة التى يمكن أن تتعدى الحواس وتنبئنا بوجودات وأشياء لا نراها أو نشعر بها. مثل ذلك الشخص الذى يعثر على آلة فى جزيرة مهجورة فيستنتج على الفور أن هذه الجزيرة كانت معمورة فى وقت ما.

والآن لنتساءل : ما الذى يجعلنا نثق بالواقع ؟ والإجابة عـــلى هذا تستلزم افتراض رابطة بين واقعتين تتيح الانتقال من واحدة إلى الأخرى . فسماع صوت فى الظلام يؤكد لنا وجود شخص ما ، لم ؟ لأن هذا الصوت أثر لفعل إنسانى وهو يرتبط ارتباطا وثيقا به . وهذا هو الشأن فى جميع استدلالاتنا المستمدة من الواقع . ولتفسير هذه الثقة التى نحلها فى الواقع ينبغى لنا أن نبحث فى كيفية وصولنا إلى معرفة العلة والمعلول .

وهيوم يرى استحالة معرفة علاقة العلة والمعلول معرفة أوّلية *a priori* وإنما نستقى هذه المعرفة من التجربة فحسب ، من اقتران مطرد بين الموضوعات . إن الحواس تظهرنا على صفات الأجسام وكيفياتها ، والتجربة الماضية تطلعنا على اقتران مطّرد بين موضوعين فى الماضى ، ولكن لم نبسط هذه التجربة إلى المستقبل ؟

ليس ثمة حجج برهانية تدعم مشابهة المستقبل للماضى إذ من الجائز عقلا أن نتصور تغيراً فى مجال الطبيعة يقلب استدلالاتنا من التجربة رأساً على عقب وقد ذكرنا أن جميع استدلالاتنا الخاصة بالواقع مبنية على علاقة العلة والمعلول ، وأن معرفتنا بهذه العلاقة مستمدة من التجربة ، ولكن استنتاجاتنا من التجربة تساير هذا المبدأ ألا وهو أن المستقبل يشبه الماضى ، فينبغى لنا أن نبحث عن الأصل فى التسليم به .

يقول هيوم إن تكرار ملاحظة أمثلة متشابهة تشابها كاملا يولد انطباعا فى الذهن ، وعن هذا الانطباع تصدر فكرة الرابطة الضرورية

بين العلة والمعلول ، فيبقى أن نتبين طبيعة هذه الفكرة : إن تكرار موضوعات متماثلة فى علاقات متماثلة من التجاور والتعاقب لا يكشف عن جديد فى أى من هذه الموضوعات ، وإن الأمثلة المتكررة التى لاحظنا فيها علاقتى التجاور والتعاقب (تجاور العلة والمعلول ، وتعاقب العلة والمعلول) مستقل كل منها بذاته عن الآخر ، فهذه الحركة التى أراها وليدة صدام كرتى البليارد متميزة تماماً عن الحركة التى رأيتها ناجمة عن هذا الصدام فى العام الماضى مثلا .

ليس ثمة جديد يكشف عنه الاقتران المطرد والتعاقب بين الموضوعات. ولكن هذا التكرار ذاته يتولد عنه فى الذهن انطباع تفكيرى ، نزعة تولدها العادة تجعلنا نمضى من موضوع إلى فكرة ما يصاحبه عادة (من رؤية الاحتراق إلى فكرة النار ، ومن رؤية الجليد إلى فكرة البرودة . . وهكذا . .) .

ففكرة الرابطة الضرورية التى تربط بين العلة والمعلول ، فكرة قائمة فى الذهن لا فى الأشياء ، وليس يمكننا أن نصل إليها من تأملنا فى صفات الأجسام . الضرورة إذن قائمة فى الذات العارفة لا فى الأشياء. وتظهرنا التجربة على أن ثمة نزعة فى الذهن تجعله ينبسط على الموضوعات الخارجية ويخلع عليها الانطباعات الباطنية . فنحن نقذف خارجا عنا ذلك التهيؤ الذى نستشعره فى أنفسنا . والعادة ـ أو بالأحرى تلك النزعة التى تنتقل بنا من فكرة إلى أخرى ـ هى التى تجعلنا ننسب إلى الموضوعات الخارجية ما يجرى فى أنفسنا أعنى الشعور برابطة ضرورية . العلاقة العلية إذن ليست إلا انطباعاً تفكيرياً لا يمكن تفسيره تفسيراً عقلياً ، ولكن يعززه

ما فيه من حيوية تجعلنا نعتقد بصحته . والاعتقاد *Belief* عند هيوم ركن هام من أركان المعرفة .

الاعتقاد *Belief*

إن الخيال واسع الحرية إلى الحد الذى يستطيع معه خلق عوالم لا وجود لها إلا فى الوهم ويسمها بميسم الواقع ، وعلى هذا فنحن لا نعتقد بوجود أشياء كهذه . نعم فى وسعنا أن نتصور موجوداً له جسم فرس ورأس إنسان، ولكن هل فى مقدورنا أن نعتقد بوجود كائن كهذا فى الواقع ؟ لا . والاختلاف بين الوهم والاعتقاد يتمثل فى إحساس أو شعور يتوفر فى الأخير ويفتقر إليه الأول . وهذا الشعور يحتاج إلى إثارة والذى يثيره هو الموضوع الماثل للحواس أو فى الذاكرة ، هذا الموضوع الذى يُحيي فى الذهن فكرة ما اقترن به عادةً ويجعله يتصور الموضوع الثانى فى قوة وحيوية . والشعور المصاحب لهذا التصور يختلف بالمرة عن الشعور المصاحب لأوهام من اختلاق المخيلة . فى ذلك الشعور تتلخص طبيعة الإعتقاد . إذ إذا لم يكن ثمة مانع من تصور موضوع مناقض لأمر من امور الواقع نعتقد به اعتقاداً قوياً كتصور كرة البليارد تتحرك بدفع الأخرى حركة مضادة لما نراه عادة ، لما لم يكن مانع من هذا فما هو إذن موضع الخلاف بين التصور الأول المتفق مع العادة والتصور الآخر المخالف لها ، إلا أن يكون ذلك الإحساس أو الشعور المصاحب للتصور الأول والذى يجعلنا نعتقد به ؟ وعلى ذلك فالاعتقاد ليس إلا تصوراً

للموضوع أملى بالحيوية والحياة وأقوى وأثبت مما يبتكره الخيال وحده. وهذا الشعور هو الذى يجعل الحقائق الواقعة أو ما يعتبر كذلك أكثر مثولا لنا من الأوهام ويجعل لها وزناً أكبر فى التفكير ويمدها بنفوذ أعظم على الخيال والعواطف .

ويلاحظ هيوم أن ثمة اتساقاً قائماً بين مجرى الطبيعة وبين تعاقب أفكارنا ، وهذا الاتساق لازم للجنس البشرى .

إن دراسة هيوم فى المعرفة لم تنحصر فى نطاق الظاهرة الحسية . فلسفته أعمق من ذلك ، وهو يدرس شيئاً ما يتخطى الحواس ويحيط علماً بموضوعات لا نراها ولا نحسها أعنى العلّية . وهيوم يتخذ من التجربة عوناً له على تشييد صرح نظريته فى المعرفة فهو يتخذ أساساً له واقعة محسوسة أو مذكورة هى سند الاعتقاد. والعلاقة العلية هى بمثابة انتقال سيكولوجى يتأدّى بنا إلى الموافقة على أن مالا نراه ولا نحس به قائم موجود والاعتقاد بذلك أيضاً . بيد أننا نلاحظ من نظره للعلية أن ثمة تجريبية ممزوجة بالشك . وقد كان على هيوم أن يواجه مشكلة ذات حدين : إما أن نصل إلى معرفة مكتسبة بمنهج منطقى متسق أعنى بينات عقلية واضحة بذاتها ، أو معتقدات هى عند تحليلها الأخير حسية فى جوهرها وليست منطقية . آثر هيوم الطريق الثانى ، وأيقظ بنقده العلية الفيلسوف الألمانى « كانت » من سباته القطعى على حد تعبير هذا الأخير .